اللعب باللغات وبينها لدى المتكلمين الجزائريين*

خولة طالب الإبراهيمي

جامعة الجزائر 2

Résumé

Le jeu de langues, dans un contexte plurilingue comme le contexte algérien où les langues cohabitent, coexistent mais peuvent aussi entrer en concurrence et même s'exclure, peut être vu par les locuteurs algériens, confrontés aux discours et aux pratiques normatifs des tenants du pouvoir symbolique, comme une stratégie de communication qui leur permet à la fois de transgresser ces normes, de faire preuve d'une grande liberté dans l'utilisation des langues à leur disposition et d'optimiser la circulation de la communication plurilingue dans tous les échanges et les interactions de la vie.

المجتمع الجزائري مجتمع متعدّد اللغات

إنّ إنكار هذه الحقيقة يعني أنّنا نتجاهل وقائع الزمان والمكان لأنّ الفضاء اللغوي الجزائري نتاج تاريخ وجغرافية حيث ينتمي -وهو يقع في الشمال من القارة الإفريقية- إلى تلك المنطقة التي تنطق بالأمازيغية، لغة الأمازيغ الأحرار، وهي تمتدّ من جزيرة "سوى" المصرية إلى جزر الخالدات في المحيط الأطلسي ثمّ وبعد الفتح الإسلامي يندرج هذا الفضاء في الفضاء الناطق باللغة العربية وتعتبر هاتين اللغتين اللغتان الوطنيتان للشعب الجزائري، وفي الأخير، وبعد أن صارت -ولأكثر من قرن- جزءا من فرنسا تعدّ اليوم من أكبر البلدان الناطقة باللغة الفرنسية.

في نفس الوقت، أثبتت المعاينة والملاحظة المثابرة لأداء المتكلّمين الجزائريين أنّهم ينظرون إلى هذا التعدّد نظرة إيجابية فيستثمرون كلّ الإمكانيات المتاحة إذ يجعلون من هذه اللغات وسائل طيّعة تخدم كلّ حاجاتهم في التواصل والتبليغ. فلا يخجلون من اللعب بهذه اللغات، فيجعلونها تتزاوج مرّة وتتنافر مرّة أخرى ويمزجون بناها على حدّ لا يمكننا من تحديد حدود كلّ واحدة منها ويبدءون حديثهم بواحدة منها وينهون بأخرى بلا حرج أو خجل؛ فهم لا يعيرون أيّ بال للأصوات المشجبة التي لا تؤمن إلاّ بالقواعد والأداء السليم الذي يخضع لمعايير الكلام الفصيح والبليغ المبني على قاعدة "قل كذا ولا تقل كذا". نرى إذن المتكلّمين الجزائريين يعبّرون في ممارساتهم اللغوية عن حسّ تبليغي كبير يجعلهم يبحثون دائما في تبادلاتهم وتفاعلاتهم عن الحدّ الأقصى من الفعالية والمردود. ومن ثمّة يجدون في اللعب باللغات وبينها الوسيلة المثلى في ذلك حيث يصبح المحرّك الذي حوله يبنون استراتيجياتهم التواصلية معلنين قبولهم للتعدّد الذي هو ميزة مجتمعهم ومستغلّين كلّ وسائله

لإنتاج النصوص والخطابات المختلفة. وقد سبق وأن عرضنا في كتابات سابقة صورا عن السلوك اللغوي للمتكلّمين الجزائريين وهو سلوك مطبوع بالإبداع الخلاّق والتحرّر من قيود المعيار وسلطانه المستبّد[1].

اللعب باللّغات وبينها

ظاهرة قديمة ومعروفة وملاحظة في كلّ الفضاءات اللغوية الإنسانية، يمكن أن تخصّ فضاء بعينه فتستغلّ المستويات الأدائية للغة الواحدة أو أكثر من فضاء حيث تجري آلياتها على أكثر من لغة فتشغل آنذاك كلّ الظواهر التي تصنّف في ظواهر الاحتكاك والتداخل اللغوي من تعاقب ومزج واقتراض ؛ يتجسد وجودها في العديد من أحاديث الحياة اليومية. وتستغلّ آليات الأسلوب البلاغي التي لا يقتصر استعمالها على الإبداع الأدبي والفنّي بل تتعداه لتشمل كلّ أنواع الخطاب المتداولة في المجتمع. ولأنّ الوظيفة الأساسية للعب باللغات وبينها تتمثّل في تفعيل التبليغ وتحسين مردوده إلى أقصى حدّ ممكن هو أوّلا وقبل كلّ شيء لعبة محورها الأوّل التنكيت أي أنّه نكتة هدفها السخرية والتهكّم والفكاهة ومراوغة الموانع وتشويش المعيار واستفزازه. هو بذلك بوتقة ابتكار لاستعمالات خاصة وقد يرقى مثلما نبيّنه فيما يلي ليصبح الوسيلة المفضّلة لدى الكتّاب فينذر بأسلوب جديد في الإبداع الفنّي. نورد فيما يلي أمثلة حية لهذه الظاهرة مستقاة من الممارسات اللغوية للمتكلّمين الجزائريين ممّا يبرهن أنّ اللعب باللغات وبينها صار يمثّل بعدا من أبعاد ملكتهم اللغوية.

اللعب باللغات وبينها في ممارسات المتكلّمين الجزائريين

ـ في الممارسات اليومية

لا يخفى على الملاحظ المتمرّس أنّنا نشهد في السنوات الأخيرة نشأة أداء لغوي مطبوع بالمزج والخلط بين اللغات يجعل الحدود بين اللغات

واهية، حيث نجد أنّ العديد من الكلمات تخترق الحدود تنضم لقاموس الأخرى حتّى ولو كانت هذه اللغة تملك في قاموسها الكلمة التي تعبّر عن هذا المعنى فتنافسها الكلمة المخترقة فلم تعد الكلمة الأصلية تفي بالمقصود. والأمثلة في هذا المجال كثيرة فهاهي "الحقرة" بالنطق المجهور للقاف تفرض وجودها في كلّ الخطابات مهما كانت اللغة التي قيلت فيها في الأصل وكذلك هي الحال بالنسبة "للترابندو" و"الميزيريا" و"الحرقة" و"الحرّاقة" (والقاف تنطق هنا كذلك مجهورة).

وهناك كلمات هي نتيجة للمزج بين أكثر من لغة مثل "الحيطيست" الذي يتكئ على جدران مدننا لكي لا تسقط من شدّة الهمّ والغمّ ! و"المبروتي" أو المغلوق كما يقال في العامية أي المغلق الذهن إلى درجة البلادة !

نذكّر الجميع بالنكتة التي صنعها الجزائريون عندما عرّبوا تسميات المناصب العليا للدولة تمكّما بالذين كانوا يريدون في الثمانينات أن ينطق بأسماء المدن و القرى نطقا عربيا في كلّ السياقات ! فأحدثوا باستعمال عبارة أبو التي شاع استعمالها في ألقاب الثوار الفلسطينيين ؛ نورد أمثلة من هذه الابتكارات : "أبورّكو"(abourricot) لنعت وزير التربية و"أبوشون"(abouchoune) للدلالة على وزارة الصناعات الخفيفة و"أبومينابل" (abominable) لنعت الوزارة الأولى ![2]

تكثر في الحديث اليومي ظاهرة التعاقب بين اللغات كالجمع بين الاسم بالعربية والنعت بالفرنسية في "حاجة fort" لوصف شيء أو ظاهرة خارقة للعادة ! أمّا التعاقب الذي يظهر عندما يبدأ المخاطب الحديث بلغة ثمّ ينتقل إلى لغة أخرى وينهيه بلغة أخرى ؛ فتواتره في الاستعمال مرتفع جدّا. فما علينا إلاّ أن نفتح آذاننا لننصت لما يقال من حولنا.

ـ الخطاب الإشهاري

لعلّ الخطاب الإشهاري هو الذي يتفنّن في استعمال اللعب باللغات وبينها واستعماله له استعمالا متميّزا لأنّه رأى فيه وسيلة لجلب انتباه الزبائن وبالفعل نجد أنّ أحسن الأمثلة لهذه الظاهرة في الإعلانات الإشهارية الخاصة بالهاتف النقّال. فلنا أن نذكّر الشعار المميّز لأحد المتعاملين ألا وهو "عش la vie" وها هنا الأمثلة عديدة تذاع يوميا في القنوات الإذاعية والتلفزيون وتنشر كذلك يوميا من على الصحف والجرائد[3].

ـ الممارسات الخاصة

نهتمّ على وجه الخصوص بلغة الشباب التي سبق وأن نشرنا فيها دراسات سابقة[4] ولا زلنا نهتمّ بها من خلال أعمال طلبتنا. والأمثلة كثيرة عن الطريقة الطريفة التي يوظّف بها الشباب ظاهرة اللعب اللغوي وهم الفئة التي أكثر من أي فئة أخرى لا تكترث بالقوانين والمعايير لأنّها تعيش مرحلة تمرّد على أعراف الكهول والكبار، ولعلّ المثال الذي اقتبسناه من مقال لمصطفى بن فضيل يبرز بصفة مذهلة هذه الروح المتهكّمة والمتمرّدة فيقول مقتبسا حديثا نبويا معروفا على لسان شاب من الشبّان ما يلي : "ونحن نعيش هذه اللهفة التجارية أحدثت مجموعة من النكت حول استعمال الهواتف النقّالة منها ما صنعه الشباب عندما شوّشوا حديثا للرسول (صلّ) : "عن سيامنس ابن أبي نوكيا قال : "من يحب منكم أخاه فليتذكّره بآبل (appel) ومن لم يستطع فبأسمأس (sms) وإذا لم يستطع فببيب (bip) وذلك أضعف الإيمان"[5].

ـ الخطاب الصحفي

ظاهرة اللعب لا تخصّ الخطاب المنطوق والحديث اليومي بل نراها أيضا في الخطاب المكتوب وخاصة منه الخطاب الصحفي. كلّنا ممّن

يقرأ الصحافة المكتوبة باللغة العربية الكيفية الذكية التي يستغل بها سعد بوعقبة المزج بين الفصحى والعامية في مقالاته في جريدة الشعب أوّلا وفي الشروق الآن منذ سنوات. أمّا الصحافة المكتوبة باللغة الفرنسية فنجد في صحيفة "يومية وهران" أو "مساء الجزائر" أركانا تحمل عناوين عربية منسوخة بالرسم اللاتيني مثل Raina raikoum وEl guellil ثمّ لنا أن نذكر أنّ عناوين بعض الصحف هي عربية منسوخة باللاتيني مثل الوطن أكبر جريدة يومية بهذه اللغة. وهي في غالب الأحيان، عبارات جاهزة لا يمكن إلاّ أن تستعمل في لغتها ومعناها الأصلي وإلاّ فقدت وقعها على القارئ.

ـ الخطاب الأدبي

لا نذكر القرّاء بالجدل الذي شدّ انتباه الأدباء العرب في القرن الماضي عند استعمال بعضهم للعامية في كتاباتهم بالفصحى، القضية معروفة و لم تعد تثير الجدل الذي عرفته في ذلك الوقت. نودّ أن نثير اهتمام القارئ إلى العناوين الطريفة التي اختارها الكتّاب الشباب في السنوات الأخيرة إذ استعملوا عبارات جاهزة أو أمثالا معروفة في بيئتهم ونقلوها في ترجمة حرفية تثير انتباه القارئ لها. فنجد عبد الحميد بوعصيدة يسمي مجموعة من القصص "خمسة في عين الشيطان" (Cinq dans les yeux de Satan) ونور الدين سعدي يختار "ما كانش عظم في اللسان" (Il n'y a pas d'os dans la langue) عنوانا لمجموعته القصصية. وعندما نجتاز العناوين لنهتمّ بأساليب الكتابة نجد تلك الكتابة الممزوجة والمشوشة للغة الفرنسية التي يمتاز بها شوقي عمّاري ومصطفى بن فضيل وعزيز شواقي[6].

وفي خلاصة القول وبعد عرض كلّ هذه الأمثلة، لا يمكننا إلاّ أن نقرّ أنّ اللعب باللغات وبينها ظاهرة طبيعية تندرج ضمن الاستراتيجيات التي يشغلها المتكلّمون في تواصلهم في كلّ الوضعيات التبليغية التي يقضون بها حاجاتهم التبليغية وهي تمثّل كنهه الأساسي في المجتمعات البشرية في عصر مطبوع بالتواصل المستمر بالآخر ولغاته وقد أثبت التاريخ أنّه لا توجد لغة صافية إلاّ في المنظورين اللاهوتي والإيديولوجي[7].

الهوامش

* إنّ هذا النص هو عبارة عن إعادة كتابة باللغة العربية لنص نشر باللغة الفرنسية في 2010.

« Le jeu de langues comme stratégie de communication » in Philippe Blanchet, Malika Kebbas, Atika Kara (directeurs), *Influences et enjeux des contestes plurilingues sur les textes et les discours*, Lambert Lucas, Rennes, 2010.

1. TALEB IBRAHIMI K (1998), De la créativité au quotidien. Le comportement langagier des locuteurs algériens in *De la didactique des langues à la didactique du plurilinguisme*, Publications de LIDILEM, Université de Grenoble 3.

2. أنظر نفس المرجع ونفس النص.

3. لقد ناقشت إحدى طالباتنا في الشهر الماضي مذكّرة ماجستير في هذا الموضوع في قسم علوم اللسان بكلية الآداب واللغات وهي إلهام بولصنام ويمكن الاطلاع على العمل بعد أسابيع قليلة في مكتبة الجامعة.

4. TALEB IBRAHIMI K (1996), Remarques sur le parler des jeunes Algérois in *Plurilinguismes*, numéro 12 ainsi qu'en 2004, Un cas exemplaire de métissage linguistique : les pratiques langagières des jeunes Algériens in *Trames de langues. Usages et métissages dans l'histoire du Maghreb*, sous la direction de Jocelyne Dakhlia, Maisonneuve et Larose, Paris

5. أنظر موقع جريدة Liberté على شبكة الإنترنت في سبتمبر 2006.

6. Voir notre article « Ecrire dans la langue de l'autre, écrire entre les langues. Plaidoyer pour le métissage littéraire » paru dans l'ouvrage collectif dirigé par P BLANCHET et moi-même, *Le plurilinguisme maghrébin, comparaison de pratiques sociales ordinaires, techniques, didactiques et littéraires en Algérie, au Maroc et en Tunisie,* Cahiers de Linguistique, numéro 34/1, 2008 (2009), EME, Belgique.

7. HASSOUN J (1993), *L'exil de la langue*, Point Hors Ligne, Paris.

Volet second :

Etats de la langue